سابقة الفلسفة لطلوب السنة التوجيهية (٣) :

(١) غاية الأخلاق عند أرسطو

للأستاذ كمال دسوقي

لنشرع الآن ... على ضوء ماقدمنا — في تحليل الكتاب الأول من الأخلاق النيقوماخية المطلوب اليكم دراسته تحليلا مفصلا . وفيه يتناول أرسطو بالحديث غاية الحياة على النحو الذي قلت في المقال السابق إنه يبدأ به بحثه في كل علم وفن أعني غرض مختلف الآراء والنظريات ومناقشتها ونقدها قبل الشروع في الادلاء بنظريته هو التي تجدونها — ويجب أن تطلعوا عليها ... في الكتاب العاشر (الأخير) من الأخلاق النيقوماخية في المجلد الثاني .

وإنما بدأ بدراسة الغاية but أو end لأن كل شيء في الحياة من علم أو عمل فانما له غاية يرمي اليها ، وبتحديدهـــذه الغاية تحديداً واضحاً منذ البدء يتضح السبيل أو الوسيلة moyen means إليها . بل إن الغاية نفسها هي التي كثيراً ماتعين الوسيلة المؤدية إليها ، كالصحة في الطب ، والانتصار في الحرب ، والثروة في الاقتصاد . وقد تبرر الغاية الوسيلة كما في بعض المذاهب الأخلاقية المتطرفة مما يعبر عنه مبدأ مكيا فيلي المعروف : الغاية تبرر الوسيلة أي تشفع لها وتستبيح في سبيل تحقيقها أية وسيلة مشروعة كانت أو غير مشروعة . فالغاية وإن كنا نصل إليها آخر الأمر — وقد لانستطيع الوصول إليها لعدم توفر أسبابها ووسائلها ... إنما تحدد بادىء الأمر ومن هنا لزم وجود علم (أو علوم) وفن (أو فنون) تختص بدراسة كل غاية من هذه الغايات ، وتنتهي من تعرف طبيعتها إلى وصف الطريق المؤدية إليها .

وما أكثر ماتتعدد الغايات وتتعقد — على خلاف بينها في درجة التعقيد . فمن الوسائل ماتعمل في طبها قيمتها بحيث تصبح هي الغاية . بمعنى أن تكون مقصودة لذاتها (فقرة ٢ سطر ٢) كمن يتلقى العلم لذات العلم ، أو يزاول نوعاً من الفنون كالرسم أو التصوير أو الشعر حباً في الفن ، من غير أن تكون له غاية أخرى من حب في الشهرة أو الثروة أو نحوهما . وأحياناً مايكون العمل وسيلة لغاية مرسومة ، كما في أغلب أفعالنا الانسانية التي هي في معظمها وصولية نفعية utilitaristes حتى لينكر المعاصرون وجود العلم للعلم ، وحب الفن للفن ، إمعاناً منهم بأن كل شيء لابد له من غاية تستتر وراءه وتكمن فيه . والأمر أشد عسراً حين ندرك أن من هذه الغايات ذاتها مايكون وسيلة لغاية أسمى ، فلا يقصد لذاته ، وقد يكون لهذه الغاية الثانية غاية أبعد وهكذا . ويردد أرسطو هنا ماسبق أن قال به في برهان وجود الله (العلة الأولى) من أن هذا التسلسل في الغائية ... كما كان في العلية ... لايمكن أن يكون إلى غير نهاية بل لابد أن يقف عند حد يكون هو العلة الأولى la cause finale أو علة العلل التي ليس وراءها علة ، والخير الأسمى le bon suprême الذي ليس بعده خير ، والذي هو موضوع جميع الآمال على اختلاف مذاهبها إليه .

فمن الغايات إذن ماهو جزئي وما هو كلي ، كما أن من العلوم التي تدرس هذه الغايات ماهو جزئي وما هو كلي . وإذا كان الخير غاية العلوم العملية على النحو الذي بينت في تقسيم العلوم عند أرسطو في المقال السابق ، فيكون من الخير إذن ماهو جزئي وما هو كلي . الجزئي هو الأخص الذي يتعلق بالفروع — والكلي هو الأسمى الذي يتعلق بالاصل . وهو عند أرسطو علم السياسة Politica الذي يتعلق بتدبير أمر الدولة أو المدينة (وإسمها في اليونانية Polis وإذا تذكرتم الملحوظة الثالثة التي ذكرت لكم في التعليق على لوحة العلوم الارسطية في المقال السابق الخاصة بتدرج العلوم العملية في أهميتها نحو الكثرة ، سهل عليكم أن تدفعوا ببطلان اعتراض المترجم الفرنسي (الفقرة التاسعة ص ١٧١ هامش) على أرسطو في جعل علم السياسة قمة العلوم العملية . فلما كان الفرد وحدة المجتمع ، والخلية الأولى في تكوينه ، وكان البحث في خيره وسعادته يجب ألا يتعارض مع بحث خير الدولة وسعادتها ، فقد رأى أرسطو بحق أن يخضع الأخلاق (علم تدبير الفرد) والتدبير المنزلي (تدبير الأسرة) لعلم السياسة (تدبير الدولة) حتى يكون للمجموع الهيمنة على الفرد فلا يدعه ينشد سعادته وخيره أينما شاء ومهما تعارض مع سعادة الآخرين ، وفي ذلك القضاء على الفوضى والاضطراب خصوصاً ولن مايراه هذا العلم خيراً على الجماعة فانه يفرضه على كل

أفراد هذه الجماعة باسم القانون أو العرف أو التقاليد التي يستحق من يحيد عنها جزاء من جنس عمله . ومتى كان القانون الخلقي يكفي وحده لضبط سلوك الأفراد — وليس للضمير سلطان على الكثير منهم — إلا أن يظاهره القانون الوضعي (أو المدني) ، والقانون السماوي (أو الديني) ؟ إن الفرد في نظر أرسطو حيوان اجتماعي لا وجود له منعزلا . وهي وجهة نظر الاجتماعيين وبعض علماء النفس المحدثين .

وإذ وضح أن الخير الحقيقي الأسمى للإنسان هو موضوع الأخلاق التي هي فرع من علم سياسة الدولة ، فان أرسطو يريد أن يدرس هذا الخير من وجهة نظر عامة لا في أمثلة فردية ربما كانت نتائجها شاذة — والشاذ لا حكم له ولا يقاس عليه (فقرات ١٤ إلى ١٦) خصوصاً وأن الحكم على الأشياء الجزئية يتطلب معرفة خاصة بها كما أن الحكم بطريقة عامة كلية يتطلب خبرة أوسع وتجربة أشمل ، ومن هنا جاءت عدم صلاحية الشباب — شباب السن الأحداث وشباب العقل الذين باتباعهم الهوى يعطلون ملكة العقل فتصدأ وتطيش ولا تصلح للتفكير السليم — لتقول عدم صلاحيتهم لتعاطي هذا العلم والبحث فيه . وليست غاية الأخلاق مجرد العلم بالخير ، بل رياضته ومزاولته عملياً وقبل كل شيء (ف ١٨ — ٢٠)

وفي الفصل الثاني يناقش أرسطو فكرة الخير من حيث ماينظر الناس إليها . هم مجمعون على أن الخير الأسمى هو السعادة ، والسعادة يريدون بها رغد العيش وحسن الفعل . ولما كان هذا التعريف عاماً وغير محدد ، فانه يتسع لكثير من التفسيرات التي تتفرع على طبيعة السعادة ذاتها ، وفي هذه التفريعات تختلف وجهات النظر ويتباعد الناس . ولما كانت الآراء هنا من الكثرة والنسبية (الغنى بالنسبة للفقير ، والصحة للمريض .) بحيث لا تحصر فان أرسطو يقتصر على ذكر أكثرها شيوعاً وأدناها إلى الصحة . وهنا يثير أرسطو مسألة المنهج الذي سيسير عليه في استقراء أنواع السعادة هذه . فيعتمد لأفلاطون تفكيره في البدء من الأشياء الجزئية الى المثل الكلية أو العكس مرجحا هو طريقة الانتقال من الحالات الجزئية إلى قانونها العام ، ومن الاشياء الشائعة الموجودة في الواقع بوضوح الى ماعسى أن يكون لها من علة . وبمعنى آخر من المعلومات إلى العلة ، والمسببات إلى السبب وهذا هو منهج الاستقراء Induction الذي لانزال نأخذ به حتى اليوم بوصفه أصح منهج لدراسة الاخلاق

وعلى أساس هذا المنهج القويم يصنف أرسطو السعادة عند الناس من حيث هي الحياة المنبثة إلى حياة اللذة، فالمجد والشهرة، وأخيراً حياة الحكمة والتأمل : الاولى هي حظ الدهماء والعامة وإن شاركهم فيها بعض ذوي السلطان المترفين الناعمين — وهي على أي أحوالها تجعل من أصحابها بهائم أولى منهم آدمية . والثانية (حياة المجد والشرف) أرفع شيئاً ، ولكنها توهب ولا تؤخذ ، بمعنى أنها ملك لواهبها لا لطالبها — إن شاء أعطى وإن شاء سلب — هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ينبغي ألا نطلبها لما يدل عليه السعي إليها من تهافت وضعة ورغبة في التكمل بما ليس فينا ؛ أو على الأقل التثبت والاستيقان من وجوده فينا — وكلاهما شر أقل مايدل عليه أن ما نريد أن ننسبه لأنفسنا — أو ينسبه لنا الناس — (وهو الفضيلة) هو أولى بالسعي والاكتساب . والفضيلة ذاتها لا تصلح وحدها غرضاً للحياة وإلا كانت مملة — بل شراً أحياناً (ويتناولها أرسطو في الكتاب الثاني) . أما الحياة الثالثة فحياة الفكر والتأمل (وهي موضوع الكتاب الأخير من الأخلاق الأرسطية) ويعالجها أرسطو بعد أن يكون قد فرغ من تحديد الفضائل والإرادة الخلقية — لأنها أساسها .

هذا عدا حياة الثروة ، والثراء لا يمكن أن يكون غاية ؛ بل هو وسيلة نقصد لغيرها لا لذاتها — كما سيتضح أن اللذة هي عمل الحواس والأعضاء ؛ ولا تراد لذاتها .

ويعود أرسطو إلى تناول الخير بمعناه التام الدقيق في الفصل الثالث ، فلا يجد حرجا في أن يتعارض مع أستاذه أفلاطون في هذا الصدد مادام يسعى للوصول إلى الحقيقة . بل هو يأخذ على نظرية المثل الأفلاطونية هنا مآخذ كثيرة ترمي في جملتها إلى إبطال نظرية الخير الكلي أو مثال الخير الأفلاطوني يمكن تلخيصها فيما يلي :

(١) من الأمور التي تتميز فيها سلسلة من سابق ولاحق — كالأعداد — لم يستطع أصحاب المثل أنفسهم أن يقولوا بمثل لها ، لأنها تستمر إلى ما لا نهاية — وأرسطو هنا يشيد بالفيثاغوريين .

(٢) ومثل هذا يقال في ما يسميه أرسطو المقولات Catégories

وهى عشرة : جوهر وتسعة أعراض ؛ الجوهر Substance سابق على الأعراض لأنه الموضوع ، وهى محمولة عليه كما يقال فى المنطق وما دام الجوهر سابقاً على أعراضه التسعة (الكم والكيف . والزمان والمكان ، والإضافة والملك والوضع ، والفعل والانفعال) فنحن بإزاء خيرات كثيرة بمقدار ما يكون للجوهر الواحد من صور وأعراض ، وهذه الخيرات منها ما هو سابق وما هو لاحق ولا يمكن أن يوجد بينها خير مشترك .

(٣) ولو كانت نظرية المثل الكلية صحيحة فيما يتعلق بالخير ، لوجب أن يوجد علم واحد يختص بدراسة الخيرات كلها من حيث هى تندرج تحت خير كلى ، والواقع لا يؤيد ذلك ، بل يقوم لكل خير جزئى علم خاص به (ف ٤) .

(٤) وقول أفلاطون بالمثل يجعلنا بإزاء ثلاثة أشياء بدلا من اثنين ـ كما فى الإنسان ، فهناك الإنسان الجزئى المسمى زيد أو عمرو ـ يليه الصفات المشتركة بين عامة الناس ـ أى الحد الكلى والماهية فى الذهن ـ فمثال الإنسان الكامل أو الصورة التالية المفارقة التى تنزع إلى محاكاتها ولا تبلغ إليها الكائنات الإنسانية الموجودة فى عالم المثل .

(٥) وفى هذه الحالة ان يكون الخير الكلى ـ أى الخير فى ذاته أو مثال الخير ـ أكثر خيراً من الجزئى ـ إذ الفرق بين المثال الكلى والشىء الجزئى المشارك فيه هو أبدية المثال وأزليته ـ أى أنه لا أول له ولا آخر زمانياً ـ وليس من شأن التقدم فى الزمان أو الخلود فيه أن يجعل للشىء زيادة فى كم الصفة أو كيفها (ف ٦)

(٦) وحتى لو قيل إننا لا نقصد أن يكون لكل نوع من الخيرات مثاله ؛ بل إن نوعاً معيناً منها هو المثالى أو الحقيق الذى تشارك فيه بقية مُثل الخيرات ، وبمشاركة الأشياء فيه تكتسب صفة الخير ، فيكون لدينا حينئذ على الأقل نوعان من الخيرات : خيرات بذاتها وأخرى بغيرها ، ويتعذر علينا بالتالى أن نميز أيها الخير الحقيق : الخير المثالى المجرد فى عالم المثل أم الخير الواقعى فى الأشياء والأفعال . فاذا أثبتنا الخير للمثال وحده دون الأشياء المشاركة فيه فما فائدته إذن ؟ (ف ١٠) وإذا أثبتناه للأشياء المتعددة لزم أن تكون مشتركة فى حد واحد هو الخير . ولكنا نرى تعدد الخيرات بحيث لا يجمعها مثال واحد ، فمن أين إذن اتفق لها الاسم على اختلافها ؟ أبا الشبه ؟ أم المصادفة ؟ أم وحدة المصدر ؟ أم الغاية ؟ هنا يتهرب أرسطو ويقتطع الجدل دون أن يتم (ف ١٣)

بل يعود إلى صدد المثال الواحد المجرد للخير فيقول إنه لو صح وجوده قائماً بذاته لما أمكن إحرازه أو تعاطيه ويمتنع بذلك السعى أو البحث عنه .

وأرسطو حتى نهاية هذا الفصل يؤكد وجوب البحث عن الخير الجزئى لا الكلى ؛ النسبى الذى له علاقة بغيره لا المطلق القائم برأسه فى علياء المثل ؛ الخير المحسوس فى الأشياء والأفعال والعلوم الواقعية لا المجرد المعقول الذى لا سبيل إلى إدراكه أو تحصيله .

وهذه جملة اعتراضنا على نظرية الخير الكلى كما تريد المثل الافلاطونية أن تكون ـ أوردناها لك بتفصيل وتوسع ـ ولك أن تقبل منها ما تؤيده الحجة الناصعة والدليل القاطع ـ فليست كلها من الوجاهة والإنصاف بحيث تؤخذ مسلماً بها ـ ولكنها على أى حال جزء من النقد العام لأرسطو على نظرية المثل الأفلاطونية ، وعليك أن تكمل هذا النقد فى ميدان المثل الأخلاقية بنقد المثل الطبيعية فى مطلع كتابى الطبيعة وما وراء الطبيعة لأرسطو ـ مما تجد شرحاً وافياً له فى المراجع العربية التى زودتك بها فى المقال الأول ـ فارجع إليها وادرسها ـ فان نقد المثل الأفلاطونية يُعدّ حجر الأساس فى كل علم من العلوم الفلسفية التى تناولها أرسطو

كمال رسوفى

احمد حسن الزيات

يقـــدم

تاريخ الادب العـربى

يؤرخ الأدب العربى من عصر الجاهلية إلى هذا العصر بأسلوب قوى ، ومستيعاب موجز وتحليل مفصل ، واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربى والآداب الأخرى .

طبع عشر مرات فى ٥٢٥ صفحة

وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد